الأنوثة في الخطاب الصوفي "رابعة العدوية " أنموذجا

د. خديجة بلخير
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
جامعة ابن خلدون تيارت

ملخص :

تحضر الأنوثة بقوة في الخطاب الصوفي ، وتعد رابعة العدوية من أبرز النساء اللواتي عبرن عن تجربتهنّ الروحية ، حيث ذاقت من كأس المحبة الإلهية ، ففاضت عليها المعارف الربانية ، وبذلك أثبتت رابعة مدى تساوي أو تفوق المرأة على الرجل الصوفي في حقل القداسة.

Feminism is strongly present in the soufist discourse ; and Rabia Adouia is considered as one of the most prominent women ; who crossed over their spiritual experience since divine love has been tasted and god's knowledge has over flowed .this has proved in a certain way that Rabia equals or exceeds soufists within the holy field.

تعتبر التجربة الصوفية تجربة فريدة من نوعها لأنها تتجاوز حدود التجربة الدينية وتتعداها لتصل إلى درجة الاستغراق في الذات الإلهية والفناء فيها ، فالصوفي يسعى دائما إلى التواصل المباشر مع الله بلا واسطة ، فيعمل جاهدا لتزكية نفسه وتطهيرها من كل الشوائب والملذات وتصفية قلبه من كل الأهواء ليرتقي بروحه من هذا العالم الحسي إلى العالم الأعلى ..عالم الملائكة .

وقد كانت بدايته منذ مطلع القرن الثاني للهجري ، حيث أعرض الناس في هذه الفترة عن كل ملذات الدنيا ومالوا إلى الزهد والتقشف ، حيث أصبح التصوف علم من علوم المجاهدة ، وبدأ يتطور بمرور الزمن ليصبح فيما بعد طريقا للمعرفة بعدما كان طريقا للعبادة.

فالتعاليم الصوفية في جوهرها تدعوا إلى تطهير الذات والباطن وإلى الحكمة والسكينة ، وهذا ما جعل اعتبار التصوف الإسلامي ذو مصادر أجنبية ، وهذا القول راجع إلى مدى التقارب والتشابه في بعض المسالك والقضايا الصوفية ، كمسألة الغياب أو الغيبة وهي حالة يعيشها الصوفي إلى درجة يفقد فيها شعوره بنفسه وعن الخلق ، ليكون حضوره بالحق وفقط ، وهي حالة أشبه بحالة النيرفانا في الهند أو المسائل الخاصة بالحب والشوق والزهد والمعاناة في التصوف المسيحي ..وغير ذلك في بعض الديانات إلا أن هذا لا يعني أبدا أن التصوف دخيل على الإسلام ، بل هو نابع من التجربة الدينية لان النبي ﷺ كان يخلو بنفسه في غار حراء ليتأمل في الكون ويتعبد الإله الواحد ، وكان يدعو دائما إلى مجاهدة النفس وتطهيرها.

وراح المتصوفة يخوضون بحار هذا العلم ، سالكين طريقه ليتذوقوا حقائق المعرفة ولتنكشف لهم الأسرار الربانية ، فوصلوا إلى حالات من الذهول والدهشة يعجز العقل عن إدراكها ، وكان أول متوغل في العلم الإلهي هو رابعة العدوية التي استعاض قلبها بالحب عن الخوف وبالرجاء في رؤية النور العلوي ...هذه المرأة التي نقلت التصوف الإسلامي خطوة إلى الأمام ، وكانت أول من كتب نصا صوفيا باللغة العربية ...بل وفوق ذلك كانت وما زالت هي الوحيدة دون الرجل المتصوف أول من بلغ مقام المحبة الإلهية فسميّت بشهيدة العشق الإلهي إذن :

إلى أي مدى استطاعت رابعة العدوية أن تحيّ التجربة الصوفية بحضورها الأنثوي ؟

إن التصوف تجربة ذوقية ذاتية تختلف من صوفي إلى آخر ، وقد حاول كثير من الباحثين جمع تعريفات له لكنهم لم يصلوا إلى تعريف محدد ، لأن كل صوفي يعرفه على حسب تجربته الخاصة ، بل يزعم الصوفية أنه إذا كان قد أمكن وضع تعريف للعلوم الشرعية لأنها علوم ورسوم تنال بالتعلم والاكتساب إلا أن علم التصوف ليس من الممكن حده ووضع تعريف جامع له لأنه في جوهره إشارات وعطايا وهبات يعرفها أهلها من بحر العطاء الذي لا ينتهي مدده.

فهو من حيث التسمية مشتق من كلمة صوف ، باعتبار أن القوم اختصوا بلباس الصوف حتى يتميزوا عن الطوائف الأخرى ، وهناك من أنسبهم إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ وبعضهم قال أنه مشتق من الصفاء ، وآخرون قالوا أنه مشتق من الصف أي في الصف الأول بقلوبهم.

أما من حيث التعريف فنجد الجنيد يعرفه بقوله : " التصوف حفظ الأوقات ، قال: " وهو أن لا يطالع العبد غير حده ، ولا يوافق غير ربه ولا يقارن غير وقته"[1].

وقال أيضا : أن تكون مع الله بلا علاقة .

وقال معروف الكرخي : التصوف : الأخذ بالحقائق ، واليأس مما في أيدي الخلائق [2] أي التمسك بها والعمل على مقتضاها .

وقيل : التصوف خلق ، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء.

وقيل : هو العصمة عن رؤية الكون.

ويقول أبو بكر الشبلي : " التصوف شرك لأنه صيانة القلب عن رؤية الغير ولا غير " [3]

---

[1]- أبو بكر محمد الكلاباذي ،التعرف لمذهب أهل التصوف ، دار صادر، بيروت ،ط1، 2010، ص: 63.

[2]- أبو القاسم القشيري،الرسالة القشيرية، دار الشعب، القاهرة، د(ط) ، 1989، ص: 366.

[3]- الهجويري ،كشف المحجوب،تر:سعاد عبد الهادي قنديل ، دار النهضة ، بيروت ، د(ط)، 1980 ،ص :234.

أي أن رؤية الغير شرك في إثبات التوحيد ، وحين لا يكون للغير قيمة في القلب ، تكون صيانته عن ذكر الغير محال.

وجاء في كتاب اللّمع أنه قيل لبعضهم : من أصحب؟ فقال : اصحب الصوفية ، فإن للقبيح عندهم وجوها من المعاذير ، وليس للكثير عندهم موقع فيرفعوك به فتعجب نفسك[1]. فهذا التعريف يبيّن مدى أهمية ومصاحبة الصوفية دون غيرهم.

وقد قال علي بن عبد الرحيم القناد رحمه الله في التصوف واندراس أهله شعرا [2] :

أَهلُ التصوفِ قد مضوا صارَالتصوف مَخرَقه صارَالتصوفُ صيحةً وَتواجداً وَمُطَبقه

مَضتِ العلُومُ فلا علومَ ولا قلـوبَ مشرقَـه كَذَبَتكَ نفسكَ ليس ذا سنّ الطريقَ الطريقِ المخلقة

نلمس في هذه الأبيات تأسفا على علوم القوم التي لم يبقى لها سوى الأثر ، فبداية هؤلاء المتصوفة كانت بقلوب صادقة ومنيرة بنور الله ، فكانوا فقراء الله لا يريدون سوى حبه والتقرب إليه ، في حين جاؤوا أناسا بعدهم يدعون أنهم من أهل القوم غير أن باطنهم غير ظاهرهم .

فالتصوف يقوم في جوهره على مجاهدة النفس وترويضها بالرياضات الروحية كالصوم والجوع والزهد وغير ذلك ، ولهذا وجب على كل صوفي أن يمرّ في سلوكه هذا بمقامات وأحوال ، هي بمثابة سفر روحي يقربه إلى الله ويجعله في مرتبة الأولياء التي تأتي بعد مرتبة الأنبياء –باعتبار أن الأولياء ورثة الأنبياء كما قال ابن عربي-.

فنصب الاهتمام على النفس والروح بدل الجسد ، لأن الجسد منذ القديم هو منبع الشهوة والرذيلة فنجد مثلا سقراط يؤكد أن نفس الفيلسوف تزدري الجسد بعمق وتفر منه وتحاول أن تنعزل بذاتها عنه لكونه لا يمثل إلا موقعا للذة والآلام ، في حين أن النفس تصبو إلى العلم والحكمة .

وأفلاطون هو الأخر يدعونا إلى التخلص من الجسد باعتباره عائقا وقبرا للنفس ، وسجنا للروح أيضا ونفس الأمر نجده تقريبا في جميع الفلسفات بما في ذلك التجربة الصوفية ، أو فلسفة الروح إن صح التعبير ، هذه الفلسفة التي كان لها رؤية خاصة للجسد وخصوصا الجسد الأنثوي ومكانه من القداسة .

فقداسة النساء من المواضيع المنسية في كتابات التاريخ ، وهذا الأمر راجع بطبيعة الحال إلى تكوينها الطبيعي والعاطفي ، وإلى المعطى الفيزيولوجي كجنس الذي يجعل مكانتها أدنى من مكانة

[1]- أبي نصر السراج الطوسي ، اللّمع ، دار الكتب الحديثة ، مصر، 1960،د(ط)، ص:46.

[2]- المصدر نفسه ، ص:47.

الرجل والذي تسبب في حرمانها من أمور كثيرة كالإمامة مثلا ، وهو ما قالته الباحثة اندزيان : " إن المرأة والدين في الإسلام يشكلان زوجا ملعونا "[1].

وهذا التأويل يهمل الجانب الأنثوي ، بل ويقصيه تماما من حقل القداسة ليس فقط في الإسلام بل أيضا في الديانات السماوية ، فاليهودية مثلا تمنع المرأة من ممارسة وظائفها الدينية ، ومن تعلم اللغة المقدسة بل حتى من لمس الكتاب المقدس ، لأن المرأة في نظرهم هي مصدر الرذيلة والخطيئة والشر ونفس الأمر في الديانة المسيحية .

وإن كانت تلك الباحثة قد بالغت نوعا ما على مكانة المرأة في الإسلام لان الحقيقة غير ذلك فالإسلام قد أكرم المرأة وأعطاها حقوقها ولم يفرق بينها وبين الرجل إلا بالتقوى.

غير أن المرأة لم تجد طريقا للخلاص من هذا الاحتكار الذي يعطي أولوية القداسة للرجل دونها سوى التواصل المباشر مع الله ، من خلال التجربة الفردية التي تجعلها تنافس الرجل ، بل وتفوقه مرتبة في زهدها وورعها ، وأكبر دليل على ذلك ما توصلت إليه رابعة العدوية في عشقها الإلهي ، الذي به استطاعت كسر كل القيود والحواجز التي تحيل بين الرجل والمرأة في الحقل القداسي.

فذاقت جمال الأشواق النفسية بزهدها عن الدنيا ، وتركها حياة اللهو والترف ، فتغنت بالحب الإلهي الذي سمى بروحها إلى عالم الأنوار ، هذا العالم الذي لم يجعلها تحس إلا بأشواقها وحبها للخالق الأعظم وقد عبرت عن وجدها هذا بقولها :

إني جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مؤانسي وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

لقد أدركت رابعة العدوية أن السعادة الأبدية ، ليست في حياة الملذات ، وإنما هي في عالم أخر غير العالم الحسي ، رغم ما كانت تمتع به من جمال ظاهري ، ومن صوت عذب ، يجعل كل امرأة تتغنى وتتمتع بطبيعة أنوثتها ، إلا أن هذا الجمال لم يعني لها شيء أمام رؤية الجمال الإلهي .

فعملت جاهدة على تحرير الباطن ، وعلى هذه الحياة التي استعبدتها ، ورأت ألا مفر منها إلا إلى عالم الملكوت الأعلى .

هذه الصوفية الورعة التي تنعدم عنها المصادر في تاريخ نشأتها ، يقال عنها أنها ولدت في عام 95ه ببصرة ، وأطلق عليها هذا الاسم " رابعة " لأنها قد سبقت بثلاثة إخوة ، وفي يوم ولادتها يقال أن

[1]- رحال أبو بريك ، بركة النساء ،إفريقيا الشرق ، المغرب ، د(ط)،2010 ، ص :20.

والدها قد رأى النبي عليه الصلاة والسلام في المنام يقول له :" إن هذه البنت التي ولدت هي سيدة جليلة القدر ، إن سبعين ألفا من أمتي ليرجون شفاعتها "[1].

فكانت بداية ميلاد مشرقة ، توحي بحياة أجمل وأفضل لهذه السيدة الجليلة ، ضف إلى ما كانت تمتاز به من شدة الذكاء ، ومن جمال الصوت ورقته ، ومهارتها في العزف على الناي ، ورغم كل هذا إلا أنها كرست حبها لله وحده وفقط.

هذا الحب الذي يعتبر من أعلى المقامات في التصوف ، وضروري للوصول إلى المعرفة الإلهية حيث يفيض النور الرباني في القلوب الصادقة ، وفي النفوس النبيلة .

قال النبي ﷺ : **" حبك الشيء يعمي ويصم"** وأنشد[2] :

أصمّني الحبَ إلا عن تسامرهِ فمنْ رأى حبَّ حُبّ يورثُ الصمّما

وكفَّ طرفي إلاّ عن رعايتهِ والحبُّ يعمي وفيهِ القتلُ إن كتِما

وأنشد أيضا :

فرطُ المحبةِ حَالٌ لا يُقاومُها رأيُ الأصيل إذا محذُورُهُ قَهرا

يلذُّ إنْ عَدَلت منه قوا رعه وإنْ تزيّد في تعديلِه بَهرا

فمحبة العبد لله تعظيم يحل الأسرار .

فالحب هو الوصال المتين الذي يربط بين قلبين ، وهو تعلق خاص من تعلقات الإرادة ، وقد تحدث عنه الحلاج فقال: "حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك " ، وقال أبو عبد الله القرشي : "حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت ، فلا يبقى لك منك شيء "[3].

وقيل " الحب هو خلوص الهوى إلى القلب وصفاؤه عن كدرات العوارض ، فلا غرض لمحب ولا إرادة مع محبوبه ، فإذا خلص الهوى في تعلقه بسبيل الله دون سائر السبل ، وتخلص له وصفا من كدورات الشركاء في السبل ، سميّ حبا لصفائه وخلوصه "[4].

فالحب مقام إلهي ، وهو وصف خاص بالإله ، ومنه يفيض عنه الحب الموجود في الكون ، ولا يعرف إلا بمذاقه ، فمن حد الحب ما عرفه ، ومن لم يذقه شربا ما عرفه ، ومن قال رويت منه ما عرفه فالحب شراب بلا ريّ، وكأس شرابه هو القلب من المحب ، لا عقله ولا حسه .

---

[1]- مأمون غريب ، رابعة العدوية ، دار الغريب ، القاهرة ، د(ط) ، 2000، ص:26.

[2]- أبو بكر محمد الكلاباذي ، التعرف لمذهب أهل التصوف ، المصدر السابق ،ص:79.

[3]- محمد مصطفى حلمي، الحب الإلهي ،دار القلم ، د(ط) ، ص: 30.

[4]- محيي الدين ابن عربي ، لوازم الحب الإلهي ، دار معد ، سوريا ، ط1، 1998، ص:41.

وقد ذاقت رابعة العدوية شراب الحب ، وبلغت ذروته في العشق الإلهي ، لدرجة أن كل معاصريها من الزهاّد كانوا يعتبرون أنفسهم تلاميذ أمامها ، فكانت تقوم الليل كله بين يديّ ربها ، وتحاسب نفسها من حين إلى حين بقولها : " يا نفس كم تنامين وإلى كم تنامين ، يوشك أن تنامي نومه لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور ، وكان هذا دأبها حتى ماتت "[1].

وعرفت أنها كانت شديدة البكاء والحزن ، وهي من الأعراض التي تطرأ على الصوفي ، بل يعتبر البعض أن هناك تأثير الديانة المسيحية دور في مسألة البكاء ، فالإنجيل يروي على لسان المسيح : " طوبى للذين يبكون ، فإنهم يعزون " .

فالمسيحية تحث على البكاء لأنه يطهر الروح ، فالدموع بعدما كانت رمزا للألم والحزن ، أصبحت علامة الصلاح والورع ، ولها أيضا قيمة دينية في الإسلام ، بل في كل الديانات وكل الحضارات فالدموع ليست فقط ظواهر فزيولوجية ، بل هي تعابير للمشاعر والأحاسيس والعواطف .

ومعروف جدا لدى الصوفية بكثرة البكاء تعظيما وخشية للخالق ، كما ورد في حديث ابن قنفذ عن أبي الحسن بن يونس الصنهاجي ، هذا الوليّ المغربي الذي اشتهر بالبكاء " يقال أنه زار امرأة صوفية متعبدة ضريرة –أي لا تبصر –فجلس في فم الغار الذي كانت منقطعة فيه ، فسلم عليها ورحبت به ، ثمّ كلمته بكلام شهق منه شهقة واحدة فمات "[2] ، فلقي حتفه على يد امرأة صوفية من المتعبدات ، فالنساء أكثر من يذرفن الدموع في الخلاص الروحي أكثر من الرجال ، وهذا الأمر يعود إلى طبيعتهن الفيزيولوجية .

والبكاء مرتبط أيضا بدرجة زهد العارف وخوفه ، فرابعة العدوية قد أضافت إلى زهدها عنصرا جديدا هو الحب الذي يتخذه الإنسان وسيلة لرؤية الجمال الأزلي ، والذي لا يستهدف أي غاية من الغايات ، أو طمعا بالجنة أو خوفا من العذاب ، وإنما حبا لذاته ، وهذه أرقى وأطهر مراتب الحب في الحياة الروحية.

وقد عبرت عن هذا بقولها :

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في القياس بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

[1]- أبو الوفا الغنيمي التفتازاني ، مدخل إلى التصوف الإسلامي ، دار الثقافة ، القاهرة ، ط3، د(ت)، ص:83.

[2]- رحال أبو بريك ، بركة النساء ، المرجع السابق ، ص:63.

ويروي عنها أيضا أنها كانت تقول في مناجاتها : "إلهي إذا كنت أعبدك رهبة من النار فأحرقني بنار جهنم ، وإذا كنت أعبدك رغبة في الجنة فاحرمني منها ، وأما إذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمني يا إلهي من جمالك الأزلي "[1].

ولم تكتفي رابعة بالشرب من كأس المحبة الربانية ، بل راحت تتعطش أكثر وأكثر ، لان هذه الخمرة الإلهية هي نور روحاني صافي ، وهو موروث عن الأنبياء ، اختص به الله أولياؤه الذين هم من خواص الخواص كما يقول الصوفية.

فراحت تعبر عن حبها شعرا ونثرا فقالت في إحدى أبياتها :

أحبك حبين : حب الهوى وحبا لأنك أهلا لــتذاك

فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواكا

وأما الذي أنت أهل لـه فكشفك لي الحجب حتى أراك

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاك

وقد فسر الغزالي هذه الأبيات في كتابه إحياء علوم الدين ، فقال أن المقصود بحب الهوى هو حب الله لإحسانه إليها ، وبحبه لمن هو أهل له ، والله إذا أحب عبدا من عباده كشف له الحجب ، وهذا ما كانت تريده رابعة في تعبدها وحبها للخالق.

وكشف الحجب كما هو معروف عند الصوفية ،أن يكشف الله للعارف الأسرار الغيبة الربانية ، وهذا بعد العروج على مقام المعرفة ، فالحب كما – قال الغزالي –بدون معرفة مستحيل ، فالمرء لا يحب إلا من يعرف ، هذه المعرفة تتضمن إدراكا أسمى للسر الإلهي .

وتقدير أي شيء كما قال أوغسطين متوقف على قدر المعرفة به ، وكلما عرف العارف ربه ، ازداد محبة له .

وللمحبة مقامات أوردها الصوفية ، الأنس والقرب والشوق :" فقلوب العارفين أوعية المحبة ، وقلوب المحبين أوعية الشوق ، وقلوب المشتاقين أوعية الأنس "[2].فالأنس بالله لا يترك مجالا للوحشة ، فهو مرتبط بالجمال الأزلي ، أما القرب فهو متعلق بالقرب الأخلاقي .

وهناك بعض المتصوفة يرفض مقام الشوق ، لأن المرء يشتاق إلى غائب ، بينما الله لا يغيب أبدا في حين بعضهم يعتبر الشوق ثمرة من ثمرات المحبة ، كما قال أبو يزيد البسطامي : " لو وضعت

---

[1]- أبو الوفا الغنيمي التفتازاني ، مدخل إلى التصوف الإسلامي ، المرجع السابق ، ص:87.

[2]- أنا ماري شيمل ، الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف ،تر:محمد السيد إسماعيل ،منشورات الجمل ، ألمانيا ط1 ، 2006 ،ص: 152.

الجنان الثمانية في كهفي ، وأعطيت الملك على العالمين ، فلا يساوي ذلك عندي زفرة تخرج من أعماقي روحي ساعة الصبح ، عندما أفكر في شوقي إليه "[1]. فكلما ازداد حبا لله ازداد شوقا لرؤيته .

وازداد شوق رابعة العدوية يوما بعد يوم لرؤية ربها ، ولم يصل بها الأمر إلى هذا الحد ، بل لدرجة الفناء فيه أي حلول الذات الإنسانية في الذات الإلهية ، كما أن الفناء عند القوم أن تفنى عن صفات البشرية وتبقى بالصفات الإلهية .

وفناء البشرية ليس على معنى عدمها ، بل على معنى أن تغمد بلذة توفى على رؤية الألم ، مثل ما حدث لصواحبات يوسف عليه السلام ، عندما قطعن أيديهن لفناء أوصافهن ، أي الاستغراق في رؤية الجمال جعلهنّ يغبن عن أنفسهم من لذة النظر إلى يوسف:

غابت صفاتٌ القاطعاتِ أكُفهاَ في شاهدٍ هو في البريّةِ أبدعُ

ففنينَ عنْ أوصافهنَّ فلم يكنْ منْ نَعتِهنَّ تلذذًّ وتـوجـعّ

وقيام امرأةِ العزيز بيوسفٍ يدُ نفسهِ ما كان يوسفُ يقطعُ [2]

وبحب رابعة لله وفنائه فيه ، استطاعت أن تكون نقطة هامة في الحياة الروحية ...ومهدّت للكثير ممّن جاؤوا بعدها ، خصوصا العنصر الأنثوي ، الذي كان حافزا كبيرا للنساء الصوفيات الذين اعتبرن أنفسهنّ غير قادرات على الخوض في هذه التجربة ، خوفا من عجزهنّ وإخفاقهنّ في الصلاح والورع مقابل الرجال الصوفيين.

فللمرأة عند أقطاب الصوفية موقع أفضل من الرجال ، فالقطب الصوفي لا يستعمل اللغة الذكورية في أي شأن يمس المرأة ، وقد بيّن ابن عربي في كتابه الفتوحات المكية في باب حديثه عن المرأة ، وقال أن كلاهما (الرجل والمرأة) يشتركان في القطبية [3] وأن يصلح كل ما يناله الرجال من المقامات والمراتب والصفات ، يمكن أن يكون من شأن النساء أيضا.

بل إن أيضا من شأن التأنيث إطلاق الذات على الله وإطلاق الصفة ، واستطرد الشيخ ليؤكد عظمة التأنيث وقدسيته بأسلوبه في التأويل المغالط ، فقال " إن الله نهانا أن نتفكر في ذات الله وما منعنا من الكلام في التوحيد ، وهذا يعني قدسية الذات المؤنثة التي لا يجوز أن يطالها الفكر [4].

---

[1]- المرجع السابق ، ص: 153.

[2]- أبو بكر محمد الكلاباذي ، التعرف لمذهب أهل التصوف ، المصدر السابق ، ص: 93.

[3]- القطبية : عند الصوفية الإنسان الكامل أو الحقيقة المحمدية.

[4]- هادي العلوي ،مدارات صوفية ، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية ،سوريا ،ط1، 1997،ص:86.

وأظهر في الفصوص –في الفص الأخير – هذا الانحياز للتأنيث بقوله: " كذلك النساء تأنيث حقيقي والصلاة تأنيث غير حقيقي ، والطيب مذكرّ بينهما كآدم بين الذات الموجود هو عنها وبين حواء الموجودة عنه ، وإن شئت قلت: الصفة فمؤنثة أيضا ، وإن شئت قلت : القدرة فمؤنثة أيضا ، فكن على أيّ مذهب شئت ، فإنك لا تجد إلا التأنيث يتقدّم حتى عند أصحاب العلّة الذين جعلوا الحق علّة في وجود العالم والعلة مؤنثة"[1].

ويقصد ابن عربي في الفص ، أنه نظرا إلى استغناء الذات عن العالمين مدرج بين (الصفة) الإلهية وبين حواء مؤنثة ، أي (فالصفة مؤنثة أيضا وإن شئت قلت): نظرا إلى أن في الصفات ما هو مذكور كالعلم والسمع والبصر والكلام بين (القدرة) وحواء (فمؤنثة أيضا) ...ثمّ قوله : فإنك لا تجد أي في المبدأ إلا التأنيث ، مقدما على المذكر حتى عند الفلاسفة في قولهم موجب بالذات ، فالمرأة من الرجل بمنزلة الطبيعة من الأمر الإلهي ، ومن خلال جمالها الأنثوي ندرك الصفات الإلهية ، وننظر إليها على أنها وحي حقيقي لرحمة الله وقدرة الخلق.

ويستعمل بعض الصوفية أيضا ، المصطلح ذا العنصر الأنثوي في قصائدهم كالشاعر المصري ابن فارض –الملقب بسلطان العاشقين- عندما تحدث عن المحبوبة الإلهية ، فكانت أسماء بطلاته ليلى وسلمى ، وهي رموز للجمال والكمال الإلهي.

وقد جاء أحسن تصوير بالفارسية لتأمل الجانب الإلهي في شخصية المرأة من خلال القصة العربية "ليلى والمجنون " فقيس الذي أشرب في قلبه حب ليلى ، قد غاب عن وعيه بفرط حبه لها ، فكان يرى فيها الجمال المطلق ، فعين الحب لا ترى إلا الجمال ، الذي يعجز العقل أن يدركه في المخلوقات .

وهكذا ما يزال يناسب هذا السياق الشعر الذي قيل عن رابعة العدوية ، واقتبسه الجامي-رغم أنه لم يكن يعتقد في العنصر النسائي خيرا:

ولو كان النساء كما ذكرن لفضلت النساء على الرجال

فلا التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال [2]

[1]- محيي الدين ابن عربي ، شرح فصوص الحكم ،دار الكتب العلمية ،بيروت ، ط1، 2007، ص:701.

[2]- أنا ماري شيمل ،الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف ، المرجع السابق،ص: 505.

فلا فرق بين الرجل والمرأة إلا بالصلاح والورع والنسك ، ومن محاسن الصدف أن تكون أول من طبق تلك النسك حق التطبيق هي امرأة –رابعة العدوية- التي ساهمت في تشكيل الصورة المثالية للمرأة الصالحة ، ضف إلى ذلك مريم البصرية ، وريحانة الوالهة وغيرهن كن معروفات بأنهنّ الباكيات الخاشعات المبكيات .

فلا يحصل الأنس والمحبة إلا بالدوام الذكر ، والانقطاع عن حب الدنيا وملذاتها ، فالرابعة بعد أن عاشت حياة القصور وحياة الترف ، أدركت أن طريقها ليس هذا ، وإنما طريق أخر والذي لا سبيل له إلا بفناء نفسها عن هذا العالم المادي الفاني .

تقول رابعة : " إن ثمرة العلم الروحي ، هي أن تصرف وجهك عن المخلوق كما توجهه إلى الله الخالق وحده ، لأن المعرفة هي معرفة الله "[1]. والحب هو أعلى المقامات والمراتب ، ومع رابعة أصبح مدرسة يتعلم منها كل من ذاق التجربة الصوفية ، تقول رابعة في هذا المقام :

فليت تحلو والحياة مريـرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب

إذا صح منك العزم فالكل هيّن وكل الذي فوق التراب تراب

فحب رابعة كان إجلالا وتعظيما للخالق ، ورغبة في المشاهدة والوصل والقرب من الذات الإلهية والوصول إلى مرتبة الوَلاية أو الوَلي كما قال الله تعالى :﴿ **أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[2].

والولي هو من يتولى الله سبحانه أمره ، وشرطه أن يكون محفوظا ، كما أن من شرط النبي أن يكون معصوما ، فالوَلاية مرتبة تأتي بعد مرتبة الأنبياء ، وكما أن للأنبياء معجزات فلأولياء كرامات ، وكانت رابعة العدوية ممّن حظوا بهذه الكرامات.

فقال فريد الدين العطار إن الحيوانان والطيور كانت تلتف حولها ولا تهرب منها .

وقيل أن أحد اللصوص أراد سرقة ملابسها ، ولكنه لم يستطع الخروج من الباب الذي أغلق دونه ،فسمع هاتفا يقول له بأن هناك من يحرسها.

ويروي أيضا فريد الدين العطار بعض الكرامات التي كانت تجري مع الحسن البصري ، عند ذهابه مع أصحابه إلى زيارة رابعة العدوية ، وكان الوقت ليلا فاحتاجوا إلى مصباح فلم يجدوا ، فوضعت رابعة طرف أصابعها في فمها ثمّ أخرجتها ، فظلّ يشع منها حتى مطلع الفجر نور مصباح.

[1]- مأمون غريب ، رابعة العدوية ، المرجع السابق ، ص:81.

[2]- سورة يونس : الآية : 62.

ويفسر العطار هذا فيقول : " إن سأل أحد كيف حدثت هذه الكرامة ، فأخبره أن النور كان يشّع من يد وموسى ، فإن قيل لك إن موس عليه السلام كان نبيّا وأن رابعة لم تكن نبيّة ، فأجبه قائلا : إن من ينفذ الأوامر التي أتى بها الأنبياء يشارك في قدرتهم على الإتيان بالمعجزات ، وكما أن للأنبياء معجزات فإن للأولياء كرامات "[1].

ومن بينها أيضا أن الحسن ذهب إليها ، وكانت قد وضعت قدرا فيه لحم ، فلما بدأ الحديث عن الله رأت أن هذا الحديث أفضل من الطهي ، فتركت القدر دون أن تنفخ تحته نار، فلما فرغا من صلاة العشاء أفرغت ما في القدر فوجدا أن اللحم الذي كان فيه قد طهي بقدرة الله ، وكان له طعم لم يتذوقا مثله قط من قبل.

نحن لا نريد تحليل هذه الكرامات من باب أسطوري أو خيالي أو حتى من جانب أنتروبولوجي وإنما نقول أن هذه الكرامات موجودة مع الأولياء في واقع يصدقه العقل أو كما قال عبد الكريم الشهرستاني :" أما كرامات الأولياء فجائزة عقلا وواردة سمعا ، ومن أعظم كرامات الله تيسير أسباب الخير وإجراؤه على أيديهم وتعسير أسباب الشر عليهم ، وحيثما كان التيسير أكثر كانت الكرامات أوفر "[2].

فالكرامة تأتي بعد مرتبة المعجزة ، وهي بمثابة مكافأة يقدمّها الله لعباده الصالحين ، كما أنها دليل على محبة الله للوليّ الذي أفرغ قلبه من كل شيء ماعدا سواه ، فالله عز وجل يقول : ﴿**إِنْ تَتَقُو اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا**﴾[3] ، أي كرامة تزيد على نيل الفرقان بين الحق والباطل وسبيل النجاة والهلاك.

والمهم للصوفي ليس إتيان بالكرامات ، بل الترقي في معراج الحياة الروحية ، وقيمة الصوفي ليس بعدد الكرامات التي بحوزته ، وإنما بمدى سلوكه وعلاقته بالخالق ، وكيفية تجسيد تلك الحياة الروحية في
الكون مع جميع أنواع الكائنات.

ورابعة العدوية في معراجها الروحي هذا ، والذي يصنف ضمن التصوف الاهتيامي دون المعرفي الفلسفي لأنه جاء بعدها ولم تعاصره ، تمكنّت من إشراق نور المحبة في النساء اللواتي كانت تعرفهنّ

---

[1]- عبد الرحمن البدوي ، رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط2 ،1962 ، ص: 95.

[2]- أبي يعقوب يوسف بن يحي التادلي ،التشوف إلى رجال التصوف ، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ،د(ط) 2011، ص: 54.

[3]- سورة الأنفال : الآية : 29.

كالمرأة التي كانت تخدمها مريم البصرية ، التي اعتبرت هي أيضا من شهداء الحب الإلهي ، وغيرها من النساء المتصوفات حتى يومنا هذا، فهناك عدد من الطرق الصوفية كانت النساء من بين أعضائها فحملن إلى حد كبير التعاليم الصوفية ، ومهما بلغ الطريق الصوفي من حداثة لم يقتصر على جذب اهتمام النساء .

وبهذا استطاعت رابعة العدوية أن تثبت دور المرأة في التجربة الصوفية ، ومدى تساويها بل وتفوقها في القداسة على الرجل الصوفي بمقدار صلاحها وورعها ، فلامرأة شأن كبير ليس فقط في هذا المجال بل في كل المجالات سواء الدينية أو السياسية أو الاجتماعية وحتى في المجال الفلسفي.

قائمة المصادروالمراجع :

1-أبو القاسم القشيري،الرسالة القشيرية، دار الشعب، القاهرة، د(ط)، 1989.

2-أبو الوفا الغنيمي التفتازاني ، مدخل إلى التصوف الإسلامي ، دار الثقافة ، القاهرة ، ط3، د(ت).

3-أبو بكر محمد الكلاباذي ،التعرف لمذهب أهل التصوف ، دار صادر، بيروت ،ط1، 2010.

4-أبي نصر السراج الطوسي ، اللّمع ، دار الكتب الحديثة ، مصر، د(ط) ، 1960.

5-أبي يعقوب يوسف بن يحي التادلي ،التشوف إلى رجال التصوف ، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة ،د(ط)، 2011.

6-الهجويري ،كشف المحجوب،ترجمة :سعاد عبد الهادي قنديل ، دار النهضة ، بيروت ، د(ط) 1980.

7-أنا ماري شيمل ، الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف ،تر:محمد السيد إسماعيل ،منشورات الجمل ، ألمانيا ، ط1 ، 2006.

8-رحال أبو بريك ، بركة النساء ،إفريقيا الشرق ، المغرب ، د(ط) ،2010.

9-عبد الرحمن البدوي ، رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط2 1962 .

10-مأمون غريب ، رابعة العدوية ، دار الغريب ، القاهرة ، د(ط)، 2000.

11-محمد مصطفى حلمي، الحب الإلهي ،دار القلم ، د(ط)، د(ت).

12-محيي الدين بن عربي ، لوازم الحب الإلهي ، دار معد ، سوريا ، ط1، 1998.

13-محيي الدين بن عربي ، شرح فصوص الحكم ،دار الكتب العلمية ،بيروت ، ط1، 2007.

14-هادي العلوي ،مدارات صوفية ، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية ،سوريا ،ط1، 1997.

مجلة القرطاس

إصدارات مخبر الدراسات الحضارية والفكرية

جامعة أبو بكر بلقايد – تلمسان . تأسست سنة 2008

معتمدة من طرف المديرية العامة للبحث العلمي والتطوير التكنولوجي

ر.د.م.د: 1112-993x

البريد الإلكتروني:

Krts.lab18@gmail.com

Vrpg.lab18@gmail.com